الفصل الثانى

المعتقدات والمعارف الشعبية حول الانسان والجسم الانسانى

مقـــدمة :

يمثل الانسان كما تمثل أجزاء الجسم الانسانى المختلفـــة محورا لعديد من المعتقدات ، كما تردد العقلية الشعبية عنها مجموعة من المعارف وكثيرا من التفاصيل المتصلة بخلق الانسان ، وخلقه ، وطبائع الجماعات والاصناف الانسانية ، ولغات البشر ، وذكاء الانسان • كما تقـــدم تلك المعتقدات والمعارف تفسيرا لكل سمات الانســـان الجســـمية الخارجية والمزاجية ولكل ما يطرأ على جســـمه من ظواهر كالتعب ، والنـــــوم ، والاحلام أو رف العين ، وأكلان اليدين ، وتنميل الرجل ، والعطس ، والتثاؤب •• الخ •

واحتفال المعتقد الشعبى بتلك الجوانب المختلفة من حياة الانسان وأخلاقه وطباعه ومظهره هى أمر مفهوم ، لان الانسان حريص على تفسير ما يعن له من أمور ويطرأ على بنى جنسه من ظواهر حرصـــه ـــ وربما أكثر ـــ على تفسير الكون المحيط به والمظاهر الطبيعية • ومن هنا وجه الاهمية الاول لهذه الطائفة من المعتقدات والمعارف الشعبية •

أما وجه الاهمية الثانى فهو كونها تمثل قطاعا عرضـــيا فى التراث الشعبى بأنواعه ، فلكى نلقى الضوء كاملا على نماذج من تلك المعتقدات والمعارف سنجد أنفسنا أمام حشد من المعتقدات والمعارف ، كما سنعثر على عديد من الممارسات والشعائر علاوة على أننا سنلتمس بعض هـــذه التصورات عن الانسان وعن أجزاء جسمه فى منتجات الابداع الادبى

الشعبى وهكذا • فنحن هنا نستخرج قطاعا من التراث بكل أنواعه • وان كان من الطبيعى أننا سنركز فى هذا الفصل على جانب المعتقدات دون سواه ، وان جاءت الاشارة عابرة هنا أو هناك الى بعض العادات والممارسات أو الى بعض نماذج الادب الشعبى وفنونه •

وقد قدمت نموذجا لمعالجة جزء من هذا الموضوع فى دراسة لى صدرت فى مجلة « عالم الفكر » عن الطفولة فى التراث الشعبى • فالكلام عن الطفولة تخصيص للكلام عن مرحلة معينة من حياة الانسان ، وقد قسمت المعالجة الى أربع أقسام رئيسية تتبعت فى كل قسم منها مفهوم الطفولة وأبعاده وخصائصه فى كل ميدان من ميادين التراث الشعبى الاربعة(١) • وعلى هذا المنوال تقريبا ينبغى أن تكون المعالجة الشاملة لموضوع الانسان والجسم الانسانى ، حيث يمكن أن يتتبع الباحث باقى المراحل فى حياة الانسان متقصيا سماتها وخصائصها فى كل ميدان من ميادين التراث •

١ — آدم أبو البشر :

يهتم المعتقد الشعبى بتكوين صورة مفصلة عن آدم أبى البشر وعن خلقه وهيئته يوم خلق وقصته قبل حواء وبعد حواء ، ثم خروجه من الجنة •• الخ • ولا يقتصر اهتمام المعتقد الشعبى على صفته كأب لكافة البشر ، وانما نجد أساتذة السحر الرسمى الكلاسيكيين ينسبون اليه — عليه السلام — طائفة من التعاليم السحرية ، التى كان له فضل توصيلها الى الناس(٢) •

---

(١) انظر محمد الجوهرى ، الطفل فى التراث الشعبى ، مقال فى مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد العاشر ، العدد الثالث ، أكتوبر — ديسمبر ١٩٧٩ ، ص ص ١٥ — ٥٢ . ولهذا السبب لن نتعرض هنا لموضوع المعتقدات والمعارف الشعبية المتعلقة بالطفولة ، حيث غطيناها تماما فى هذه الدراسة المطولة .

(٢) انظر فصل « توصيل المعرفة السحرية » فى رسالتنا للدكتوراه عن السحر الاسلامى المصرى ، مرجع سابق ، حيث خصصنا فقرة مستقلة عن تصوير آدم فى التراث السحرى الرسمى ، ص ص ٣٣ — ٣٦ .

ونحن لن نستعرض تفصيلا كل تلك الشواهد • ولكننا نكتفى بالاشارة الى أن آدم يختص فى العقلية الشعبية بكافة مظاهر التكريم والعظمة ، وهو بطبيعة الحال يختص بطائفة من الاوليات حيث كان أول من فعل كذا وكذا من الاشياء •

ومن مظاهر تكريم آدم — فى رأى المعتقد الشعبى — أنه هو الذى بنى الكعبة(٣) • وهو الذى وضع الحجر الاسود فى مكانه(٤) ، وهو أول البشر فى أداء فريضة الحج •• الى آخر قائمة الاشياء العظيمة التى كان فيها أول الناس(٥) •

ومن مظاهر أهميته وأمارات تكريمه تصوير ما حدث يوم موته • ففى ذلك اليوم : اجتمعت عليه الملائكة ، فدفنته ، وتولت الملائكة غسله ودفنه ، فغسلته بالسدر والماء وترا ، وكفنوه فى ثلاثة ثياب ، وكسفت عليه الشمس والقمر ستة أيام بلياليهن(٦) • ويبالغ التصور الشعبى فى اثبات سمو آدم بتصوير لا يستند بالطبع الى أى أساس من الدين الصحيح ، ولكنه يجمع فى جزئياته كافة الاشياء المقدسة • ولكن التصوير التالى يجمع الى جانب القداسة فكرة الشمول ، فالتراب الذى خلق منه آدم جمع كل جزء منه من ركن من أركان الارض وفى هذا يقول الثعلبى :

« خلق رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة ، وصدره وظهره من بيت المقدس ، وفخذيه من أرض اليمن ، وساقيه من أرض مصر ، وقدميه من أرض الحجاز ، ويده من أرض المشرق ، ويده اليسرى من أرض المغرب • ثم ألقاه على باب الجنة • فلما مر عليه ملأ من الملائكة عجبوا من حسن صورته وطول قامته ، ولم يكونوا قبل رأوا شيئا يشبهه من الصور »(٧)•

---

(٣) انظر النويرى ، نهاية الارب فى فنون الادب ، مرجع سابق ، الجزء الاول ، ص ٣٠١ .
(٤) النويرى ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٣١٥ .
(٥) الثعلبى ، قصص الانبياء ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .
(٦) الثعلبى ، قصص الانبياء ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .
(٧) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

ولا تكتمل قصة آدم ، كما لا تكتمل صورته فى نظر المعتقد الشعبى، الا بالاشارة الى حواء • فحواء خلقت من ضلع آدم . وهى أنيسه الاول ، فقد كان آدم يحس الوحشة عندما كان يمشى وحيدا فى الجنة « لم يكن له من يجالسه ويؤانسه »(٨) • وهى تتصف فى المعتقد الشعبى بعديد من الصفات التى يلخص بعضها النص التالى ، والذى يكشف عن تأثر هذه الصورة بالخطوط العريضة للمعتقد الدينى الرسمى حول الموضوع • « ••• ثم قالت حواء : الهى خلقتنى من ضلع أعوج ، وجعلتنى ناقصة العقل والدين والشهادة والميراث ، وضربتنى بالنجاسة ، وحرمتنى الجمعة والجماعات • وذكرت مشقة الحمل والولادة ، فأسألك أن تعطينى مثل ما أعطيتهم • فقيل لها : قد وهبت لك الحياء والانس والرحمة ، وكتبت لك من ثواب الحبل (!) والولادة ما لو رأيته لقرت به عيناك ؛ فأى امرأة ماتت فى ولادتها حشرتها فى زمرة الشهداء ؛ قالت : حسبى يارب »(٩) •

٢ ــ أخلاق البشر وطبائعهم :

هذا باب هام من أبواب المعتقدات الشعبية التى تحتاج الى دراسات مستفيضة ، ستكون لها دلالاتها البعيدة بالنسبة للواقع المعاصر وللمستقبل أيضا • فكل شعب يكون صورة عن نفسه ، وعن كل شعب أو طائفة من الشعوب والطوائف التى يعرفها • ومن البديهى أن تلك الصورة ترتكز على بعض الخبرات الواقعية مع تلك الجماعة أو ذلك الشعب ، ولكنها تنطوى دائما على قدر ــ قد يكون كبيرا ــ من المبالغة والتضخيم • وهو أمر مفهوم ، لان تلك الصورة تكون شديدة الشبه بالصورة الادبية الانطباعية ، التى ترى جزءا على حساب رؤيتها لاجزاء أخرى ، كما أنها

---

(٨) المرجع السابق ، ص ٣٥ . ومن الطريف أن خلق حواء من ضلع آدم لم يسبب له أدنى الم ولم يحس هو بذلك ، ويعلق الثعلبى : « لو أولم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة » .

(٩) النويرى ، نهاية الارب فى فنون الادب ، مرجع سابق ، الجزء الثالث عشر ، ص ٢١ .

ترى ذلك الجزء بعين النقد والانتقـاد ، وتضخمه ، وتضفى عليـه من المبالغة ما يجعله طريفا ، ميسـور التواتر والنقل من جيل الى جيـل ، فالمبالغة هى توابل الحقيقة فى هذه الصورة •

وقد أصبحت هذه النقطة من المعتقدات الشعبية ذات أهمية حيوية فى الواقع المعاصر ، حيث أصبح الانسان ــ بعد ثورة النقل والمواصلات ــ يدخل فى علاقات مباشرة أو شبه مباشرة مع كافة أنواع البشر • ومن هنا حرص كل شعب ــ خاصة اذا كان مسيطرا أو طامعا فى سيطرة ــ أن يعدل ويحسن ويجمل صورته لدى الشعوب الاخرى • وتعديل هذه الصورة النمطية هى خطوة فى سبيل تعديل الاتجاه ••• وهكذا • وذلك موضوع آخر يستحق معالجة مستقلة فى مقام آخر •

والملامح التالية أنقلها عن كتب التراثلتصور ملامح بعض الشعوب العربية فى التراث العربى المصرى الوسيط : كالشعب اليمنى ، والمصرى ، والشامى ، وسكان البادية •• الخ • كما تصور بعض ملامح الشعوب المجاورة للشـعب العربى كالروم ، والترك ، والاكـراد ، والصـين ، والبربر ••• الخ •

ويلخص النص التالى أبرز السمات المميزة لبعض الشعوب أنقله عن النويرى (نهاية الارب ، الجزء الاول ، ص ٢٩٢) •

« ••• لما خلق الله تعالى الخلق ، خلق معهم عشرة أخلاق : الايمان ، والحياء ، والنجـدة ، والفتنة ، والكبر ، والنفـاق ، والغنى ، والفقر ، والذل ، والشقاء • فقال الايمان أنا لاحق باليمين فقال الحياء وأنا معك • وقالت النجدة أنا لاحقة بالشام فقالت الفتنة وأنا معك • وقال الغنى أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك (!) • وقال الفقـر أنا لاحق بالبادية فقال الشقاء وأنا معك » •

وفى بعض الآثار الادبية يتم تصوير الصفة فى شعب ما عن طريق نفى وجود ضدها عن ذلك الشعب ، حيث يقال : أربعة لا تعرف فى أربعة:

السخاء فى الروم ، والوفاء فى الترك . والشجاعة فى القبط والغم فى الزنج » (النويرى ــ المرجع السابق . ص ٢٩٤)(١٠) .

٣ ــ اختلاف لغات البشر :

تزخر الكتب الشعبية وكذلك الاساطير بعديد من التفسيرات التى تلقى الضوء على ظاهرة اختلاف لغات البشر ، وتحاول أن تقدم تفسيرا لها . والمهم أن نؤكد أن أساطير كافة شعوب الارض المعروفة تقرر على العموم أن كافة الناس كانوا فى بادىء حياتهم يتكلمون لغة واحدة يستطيعون التفاهم بها فى كل أمر . ثم حدث بعد ذلك أن كتب عليهم أن تتعدد لغاتهم وتتباين ويعجزون عن فهم بعضهم البعض . وكان ذلك الامر بمثابة عقاب لهم على خطيئة ارتكبوها ، أو محرمات انتهكوها ، أو عصيان للآلهة .. أو غير ذلك من مخالفة استوجبت ذلك العقاب الكبير(١١) .

---

(١٠) هناك صورة ثالثة لعرض السمة وترديدها بابراز أن هذا الشعب يحمل من السمة كذا تسعة أعشار نسبتها فى بقية الخلق ، كما يوضح ذلك نص النويرى : « ... روى عن عبد الله بن عباس انه قال : ان الله تعالى خلق البركة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى قريش ، وواحد فى سائر الناس . وجعل الكرم عشرة أجزاء ، فتسعة منها فى العرب وواحد فى سائر الناس . وجعل الغيرة عشرة أجزاء فتسعة منها فى الاكراد ، وواحد فى سائر الناس . وجعل المكر عشرة أجزاء فتسعة منها فى القبط ، وواحد فى سائر الناس . وجعل الجفاء عشرة أجزاء ، فتسعة منها فى الروم وواحد فى سائر الناس . وجعل الصناعة عشرة أجزاء فتسعة منها فى الصين ، وواحد فى سائر الناس . وجعل الشهوة عشرة أجزاء فتسعة منها فى النساء وواحد فى سائر الناس . وجعل العمل عشرة أجزاء فتسعة منها فى الانبياء وواحد فى سائر الناس . وجعل الحسد عشرة أجزاء فتسعة منها فى اليهود وواحد فى سائر الناس » . النويرى ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٢٩٣ .

(١١) أنظر بعض التفسيرات التى توضح كيف حدث ذلك بالتفصيل من واقع أساطير الشعوب المختلفة ، فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧ ، وعند جيمس فريزر الفولكلور فى العهد القديم ، (الاصل الانجليزى المفصل) ، المجلد الاول ، ص ص ٣٨٤ وما بعدها .

٤ ـ تحول النوع :

المقصود هنا تحول الجنس بمعناه العام Species (أى تحـول الحصان الى رجل ـ وسيم أحيانا ـ أو تحول القرد الى انسـان ، أو الانسان الى ضفدع ... الخ) وكذلك تحول النوع فقط ، أى تحـول الرجل الى امرأة ، أو العكس أى تحول المرأة الى رجل .

وتزخر الحكايات الشعبية بهذا الموقف ليس فى تراثنا العربى وحده، وانما فى شتى الثقافات وعلى امتداد العصور المختلفة . ولما كانت هـذه الموتيفة أكثر ما تكون شيوعا فى التراث العالمى فى الحكايات الفارسـية والهندية ، كان من المنطقى أن نجدها بشكل متكرر فى حكايات ألف ليلة وليلة ، لما هو معروف عن المؤثرات الهندية والفارسـية العميقـة على مجموعة الحكايات هذه .

والعامل الاسـاسى دائما فى كل حالات تحـول النوع يرجع الى ممارسة السحر غالبا . فالساحر الشرير هو الذى يحول المرأة الجميلة الى صورة حيوانية ، أو يحول الامير الوسيم الى حصان ، وكذلك الساحر الطيب هو الذى « يفك » هـذا السحر ، برد الحيـوان الى صـورته الانسانية السابقة .

وهناك وسيلة أخرى عدا هذا يمكن أن تكون مسئولة عن تحـول النوع وهى مصاحبة الانسان « لخادم » (أى روح ، أو مارد .. الخ) له قوى خارقة ، فاما أن يطلب منه هو ذلك لغرض فى نفسه كأن يتخـذ صورة حصان أو حمار ليكتشف خيانة زوجته أو صديقه ، أو يخون العهد والميثاق الذى أخذه عليه هذا الخادم فيعاقبه ذلك الخادم بتحويله الى صورة حيوانية تكون كريهة فى العادة كأن يمسخه قردا .

وقد يكون التحول أبديا أى يظل الانسان فى صورته الحيوانية الى أن يموت ، ولكن الارجح (ولكى تكون القصة أكثر طرافة وأكثر اقناعا)

أن يعود الى صورته الاولى بعد ممارسة سحر معين عليه ، أو الوفاء بشرط معين ... الخ .

الا أن هناك وسيلة أخرى لتحول النوع أقل دراماتيكية من ذلك . هى استعارة ملابس الجنس الآخر ، للظهور بمظهره ، فيرتدى الرجل ملابس النساء والعكس . وهذا هو الآخر موتيف واسع الانتشار فى الحكايات الشعبية على امتداد العالم . ومازالت هذه الممارسة تتم حتى اليوم فى بعض الاعياد والاحتفالات الشعبية فى بعض البلاد الاوربية . وقد كان تبديل الادوار يتم فى الماضى من أجل خداع الارواح الشريرة ، ويكون شأن هذه الممارسة شأن ممارسة اخفاء اسم الشخص أو اخفاء اسمه لاخفائه هو نفسه عن الارواح الشريرة التى تحل فى بعض المناسبات (كأول العام ، أو عيد الشكر .. الخ) لمحاسبة البشر أو الايقاع بهم أو الحاق الضرر بهم . فيكون التنكر بتغيير الزى وسيلة للهروب من تلك الارواح .

وهو كذلك يتم بهدف الرغبة فى تفادى تأثير الحسد وأضرار العين الشريرة . فالولد الجميل أو الوحيد أو الذى ولد بعد عدة بنات أو ولد لأبويه بعد انقطاع طويل عن الانجاب .. الخ يلبسونه أزياء الفتيات درءا للحسد وتجنبا للعين الشريرة ، وكذلك الفتاة الجميلة أو الوحيدة .. الخ .

ولا شك أن هذا الموتيف الشعبى انما يستمد جذوره من بعض الحوادث الواقعية المتفرقة حيث يشهد كل مجتمع من حين لآخر حالة من حالات تحول النوع تتم أمامه (وهى الحالات التى ازدادت عددا فى عصرنا الحديث بمساعدة العمليات الجراحية المتخصصة ، وأخذنا نسمع عنها اليوم على نطاق واسع) وبسبب غرابتها وطرافتها كان من الواضح أن تلجأ اليها الحكايات الشعبية لتدمجها فى الاطار الاعتقادى الشعبى

السائد فى كل مجتمع وفى كل عصر(١٢) .

٥ ــ الاقــزام :

تدور حول الاقزام فى كل الثقافات مجموعة متنوعة من المعتقدات والمعارف ، فمن حيث أصل الاقزام ، يعتقد البعض أنهم يكونون مجتمعا مستقلا من كائنات خارقة خفية تعيش أصــلا فى أماكن نائية غريبــة ، والبعض منهم الذين نراهم انما هم ينتمون أصــلا الى هذا المجتمــع الغريب . وبنفس الشكل تدور طائفة من المعتقدات والتفسيرات بشأن خصائصهم الجسمية المتميزة ومظهرهم الخارجى اللافت للنظر . والتراث الاوربى ملىء بالكثــير من الحكايات والامثــال التى تفسر وجــودهم وتشرح خصائصهم . ومن أبرز القدرات التى يتمتعون بها القدرة على التنبؤ وتقديم النصح والارشادات لكل من ينوى عملا معينا . وبنفس القدر دلتنا الدراسات الانثروبولوجية على أن التراث الشعبى للشعوب البدائية والمتخلفة (كالهنود الحمر والاسكيمو مثلا) غنى بالتراث الدائر حول الاقزام(١٣) .

٦ ــ التوائم :

من المعروف أن التوائم ليست من الظواهر الشائعة احصائيا على على مستوى العالم ، ومع ذلك فاننا نجــد المعتقــد الشــعبى لدى كل الشعوب وعلى مدى كل العصور يحفل بكثير من الافكار والعناصر الدائرة حول التوائم ، لانهــا كظاهره ــ رغم ندرتها ــ تثير الانتبــاه وتصبح

---

(١٢) انظر مزيدا من التفاصــيل فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجــع سابق ، ص ٢٠٩ .

(١٣) انظر بعض نماذج لتلك الحكايات والامثال الاوربية عن الاقزام فى قاموس فونك للفولكلور ، حيث يعالج المقال كذلك تراث الاقزام عند الشعوب البدائية . ويجد القارىء قائمة بأهم المراجــع والمصــادر عن الاقزام وعن صورتهم فى التراث الشعبى ، قاموس فونك ، مرجع سابق ، ص ٣٣١ .

موضعا للتعليقات والتفسيرات ومثارا لمواقف واتجاهات سنعرض لطرف منها فيما بعد •

تتراوح المواقف المعروفة من التوائم فى المعتقد الشعبى بين التشاؤم الشديد منها وما يتبع ذلك من ممارسات سنعرف بعضها فيما يلى ، والتفاؤل أو التقدير الكبير ، الذى نلمس نتائجه ونرى عواقبه فى ممارسات الناس أيضا • وان شئنا المفاضلة بين الاتجاهين أو وزنهما من حيث سعة الانتشار وجدنا اتجاه النفور منهما والتشاؤم هو الاوسع انتشارا أو الاكثر تواترا بين الناس •

وقد عرفنا عن بعض المجتمعات أن أحد التوأمين ينسب عادة الى الآلهة ، أما الآخر فينسب الى أب من البشر (قارن فى هذا حكاية هرقل فى الاسطورة الاغريقية) • بينما تعتقد شعوب أخرى أن التوأمين يكونان لرجلين شاركا فى اخصاب الام ، كل منهما أب لكل من التوأمين •

وكثيرا ما يعتقد أن انجاب التوائم هو ثمرة علاقة زنى ودليل عليه • أما المجتمعات الاحدث والاقرب الينا والاكثر تقدما فتعتقد أن انجاب التوائم هو دليل على زيادة فى رجولة الاب • بينما تعتقد كثير من الشعوب البدائية أن التوائم يجب التخلص منها ، وأن على المرأة أن تتطهر لفترة من الوقت بعد أن تتخلص منهما •

ولهذا السبب تحرص تلك المجتمعات على تجنب أكل المرأة للثمار المزدوجة كلوزتين ملتصقتين ببعضهما ، أو موزتين ملتصقتين ••• الخ حيث يعتقد أن أكل تلك الاشياء يؤدى الى انجاب التوائم • ويورد قاموس فونك تفصيلا بعض الممارسات ــ مشفوعة بالنصوص المستخدمة ــ التى يتحتم اللجوء اليها فى حالة اذا ما اضطرت الفتاة أو المرأة الى أكل مثل هذه الثمار المزدوجة • والهدف من كل تلك الممارسات والصيغ تجنب انجاب التوائم •

ثم هناك على الطرف الآخر الموقف الذى يحبذ انجاب التوائم

ويسعد بها ويعتبرها فألا حسنا • فيعتقد أبناء تلك الثقافات أن التوائم تتمتع ببصيرة نافذة ، أو قل يتمتعون بقوة خارقة ناتجة عن جمعهم بين شخصيتين فى نفس الوقت • كما ترى احدى قبائل الهنـود الحمـر أن التوائم تستطيع رؤية الارواح وغيرها من الكائنات فوق الطبيعية ، وهو الامر الذى لا يستطيعه الناس العاديون كما نعرف • ولكن التوائم يمكن أن تفقد هذه القدرة اذا ما تناولت طعاما من اعداد امرأة حائض •

ونستطيع أن نجد نفس هذين الموقفين العامين من التوائم فى الثقافة الافريقية جنوب الصحراء أيضا ، خاصـة غرب أفريقيا ، ومنها انتقلت تلك المعتقدات الى زنوج العالم الجديد • ويفسر البعض هـذه المواقف المتطرفة من التوائم فى ضوء أنهم يمثلون نوعا من الولادات الشاذة أو التى تلابسها ظروف غير طبيعية • ويرسـم هيرسكوفيتس فى مقاله عن التوائم فى غرب أفريقيا معالم الخط الفاصل بين منطقتى عبادة التوائم والنفور منهم بأنه يمتد عبر وسط نيجـيريا • حيث نجـد أن اليوروبا وقبائل السـاحل الغينى غربا من الفـريق الذى يحب التـوائم • أما الايبو وزنوج منطقة الدلتا والكاميرون فيتخذون الموقف المعاكس(١٤) •

ويشير هيرسكوفيتس علاوة على هـذا الى أن هناك طائفـة من المعتقدات الدائرة حول الطفل التالى فى الولادة على التوائم • اذ ترى تلك الثقافات الزنجية أن هذا الطفل يتميز بقوة جسـمانية فائقة ، وأنه يجب أن يلقى معاملة خاصة •• الخ(١٥) • ويفسر انتشار الممارسـات والعبارات المتعلقة بالطفل التالى على التوائم (والمعروف باسم The dosu فى مجتمعات البرازيل ، وكوبا ، وجيانا ، وهايتى وغيرها من شعوب البحر الكاريبى بأنه يكاد يكون احتفاظا طبق الاصـل بنظائرها الافـريقية

---

(١٤) انظر مقال هيرسكوفيتس فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجـع سابق ، ص ص ١١٣٤ — ١١٣٦ .

(١٥) انظر المرجع السابق ١١٣٥ .

الاصلية ، والتى انتشرت الى تلك المنطقة ، وتركت بصماتها واضحة عليها دون اعادة تفسير •

٧ ــ الاحــول :

من سوء الحظ أن يصادف المرء شخصا أحولا • بينما يعد فألا طيبا أن تصادف فى طريقك شخصا أحولا من الجنس الآخــر • ولكى يتجنب الشخص سوء الحظ هذا اذا وقع له ، فما عليه لدى رؤيته للأحول سوى أن يتفل من بين أصــابعه ، ولكن بشرط ألا تجعله يراك وأنت تتفــل ، والا ضاع تأثيره •

ومن الطرق الاخرى لتجنب الاضرار التى يمــكن أن تلحق بك من رؤية الاحول أن تحدق فيه بشدة ، وهذه وصفة يسيرة ولا شك • ويعتقد كذلك أنك ستخسر اذا لعبت الورق (الكوتشينة) مع شخص أحول •

ويذهب البعض الى الاعتقاد بأن لقاء الاحول فى أول النهار سيجعل الامور ترتبك وتتعقد طول اليوم ، ولقاءه فى أول يوم من أيام الاسبوع سيعقد الامور طوال الاسبوع •

ولما كان الحول من الامور الكريهة الى هذا الحد وجدنا التــراث الشعبى يحفل بعديد من النصائح والممارسات التى تستهدف التوقى منه أو علاجه اذا ما حدث • من هذا مثلا التنبيه الشديد بألا تدع الطفــل يحدق فى المرآة قبل بلوغه العام ، والا أصيب بالحول • ولكن اذا حدث ووقع هذا وأصيب الطفل بالحول فالعلاج هو أن تدعك دما مأخوذا من دجاجة سوداء على عنق الطفل •

ومع كل هذا فان هناك بعض المناسبات والاغراض النــادرة التى يمكن أن يكون الشخص الاحول مفيدا فيها • ففى الثقــافة الامريــكية الشعبية تعد قدم الأرنب تعويذة جالبة للحظ ، ولكى تكون كذلك فعــلا ويكون تأثيرها مضمونا يجب أن تكون القدم الخلفية اليسرى لأرنب من

أرانب الجبانات يكون قاتله زنجى أحول ، ويكون ذلك القتل فى منتصف الليل(١٦) .

٨ ــ الخلاص :

من الملاحظ أن الخلاص يرتبط عند كافة شعوب الارض تقريبا (المتخلف والمتحضر على السواء) ارتباطا وثيقا بروح وحياة ، وموت ، وصحة ، وطباع ، ونجاح أو فشل الشخص الذى يولد فيه . ولذلك نجده يرتبط بالاعتقاد الانسانى الراسخ الجذور فى الروح الخارجية أو الروح التى لا تنفصل عن الجسد . (ومن هنا أصبح ما يحدث للخلاص وكذلك الحبل السرى وبرقع الجنين ــ وهو غشاء رقيق يغطى رأس المولود أحيانا) يؤثر فى حياة الطفل كلها ، بل يحدد مصيره فى الحياة برمته . حيث يعتقد أنه يحوى روح الطفل الوليد أو يضم روحه الحارس ، أو هو أخوه أو توأمه أو نظيره الحقيقى ، أو أنه مرتبط به ارتباطا غامضا ووثيقا . فالتصرف فيه أو مصيره سوف يحددان مهارات الطفل ، وحظه ، ومصيره فى الحياة . وتنتشر تلك المعتقدات لدىٰ كافة شعوب الارض وشتى الثقافات من كولومبيا البريطانية الى تيراديل فويجو ، ومن أيسلندة حتى سيبريا ، ومن أوربا حتى جنوب أفريقيا ، وعند شعوب الصين ، وأندونسيا وجنوب المحيط الهادى ، بل وحتى عند شعوب الهنود الحمر الامريكيين : فكل تلك الشعوب تنظر الى الخلاص بتقدير وحرص شديدين ، وتعمل على المحافظة عليه أو التصرف فيه طبقا للمعتقدات الشائعة عنه لدى الجماعة .

وهناك شواهد لا حصر لها على هذا الاعتقاد عند الشعوب المختلفة. من هذا مثلا ما يقوم به هنود كواكيوتل الحمر فى كولومبيا البريطانية

---

(١٦) انظر قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، مادة الاحول ، ص ٢٦٦ .

حيث يقدمون خلاص الوليد الذكر الى الغربان السوداء ، معتقـدين أن ذلك سوف يمنح ذلك الطفل القدرة على التنبؤ بالمستقبل • أما خلاص البنت فيدفن فى أحد الاماكن المرتفعة التى تغطيها ميـاه الجـزر لتكون امرأة ولودا •

ونجد نفس هذا النوع من السحر التعاطفى عند شـعب اليوقاغير Yukghir فى شمال شرقى سيبريا اذ يلفون خلاص الوليد فى جلد الرنة ويلفون معه نموذجا مصغرا لقوس وسهم ، وسكينا خشبيا صغيرا وقطعا صغيرة من الفراء وذلك بهدف أن يصبح هذا الوليد صائدا ماهرا • أما خلاص البنت فتوضع معه سكين صغيرة مما يستعمله النساء ، وكستبان (مما تضعه النساء فى أصبعها عند الخياطة) ، وابرة • ويلف كل هـذا مع الخلاص فى لفة ، والهدف من ذلك أن تصبح المرأة ماهرة فى بيتها •

وهناك شعب بعيد عن هاتين المجموعتين بمسافة كبيرة هو شـعب الايمارا فى بوليفيا بأمريكا الجنوبية نجده يهتم بالخلاص اهتماما كبيرا ، حيث يغطى الخلاص بالزهور ثم يدفن بالنسبة للولد ومعه نماذج مصغرة جدا من أدوات العمل الزراعى ، أما بالنسبة للبنت فيدفن ومعه وعاء طهى صغير • كذلك نجد فى جميع أنحاء أوروبا أن المعتقد الشعبى السائد يرى أن مصير الشخص متوقف على خلاصه ومرتبط به • ولذلك يحرصـون أكبر الحرص على ألا يعثر عليه أى حيوان ويأكله ، أو يتعرض للارواح الشريرة • لانه لو حدث وعثر عليه أحد الحيـوانات وأكله فان الطفـل عندما يكبر سوف يكتسب كل الخصائص الذميمة (الجسمية أو النفسية) لذلك الحيوان •

أما الاعتقاد بأن خلاص الوليد يحوى جزءا من روح ذلك الطفـل فشائع فى أطراف الارض جميعها من أيسلندة حتى زنجبار، ومن استراليا حتى سومطرة • فنجد أن السواحيلين فى زنجبار يدفنون الخلاص تحت البيت الذى ولد فيـه الطفل نفسـه ليضمنون بذلك ولاءه للبيت • أما

الباتاك كارو Karo Batak (فى جزيرة سومطرة) فيقومون أيضا بدفن الخلاص تحت البيت ، معتقدين أنه يحوى روح الطفل الحقيقى • ولكنهم يعتقدون فى الوقت نفسه أن للطفل روحا أخرى للحياة اليومية ، ولكن الروح الحقيقى موجودة فى الخلاص ويجب الحفاظ عليها بمنتهى الحرص •

كذلك يعمد شعب الباتاك — فى سومطرة أيضا — الى دفن خلاص وليدهم تحت البيت ، لاعتقادهم أنه يحتوى على روح الطفل • بينما تقوم قبائل أخرى فى سومطرة بحفظ ذلك الخلاص بحرص عن طريق تمليحه واضافة التمر هندى اليه والتوسل الى الروح لكى تدخل فيه • وتقترب هذه الممارسة اقترابا كبيرا من فكرة الروح الحارسة • ويؤمن كذلك بفكرة الروح الحارسة هذه شعب الكوبو Kooboo فى سومطرة الذين يعتقدون أن الخلاص هو مقر تلك الروح الحارسة ، وأنها هى التى ستحمى الفرد من الاذى والشرور طوال حياته •

ويعتقد شعب الباتاك السومطرى أن لكل شخص روحان حارسان : واحد موجود فى بذرة الجنين (ويسمى الاخ الاكبر) ، والآخر فى الخلاص (ويسمى الاخ الاصغر) • كذلك تعتقد قبائل وسط استراليا أن الخلاص يحوى روح الطفل ، ولذلك يخبئونه بحرص بدفنه فى باطن الارض • وترى قبائل منطقة كوينزلاند (فى استراليا) أن جزءا معينا من الروح هو الذى يظل فى الخلاص • ولذلك فهم لا يتوانون عن دفن الخلاص فور انتهاء عملية الولادة ، ويضعون عليه علامة مميزة فرعا من فروع الشجر كثير الاغصان •

ويرى شعب الباجندا فى وسط أفريقيا أن الخلاص هو التوأم الحقيقى أو هو قرين الطفل المولود • ولذلك يعمدون الى وضعه فى وعاء ويدفنونه تحت شجرة موز الجنة أو لسان الحمل Plantain tree بعدها يتحول الخلاص الى شبح ويحل فى الشجرة المدفون تحتها • وتقوم القبيلة بحراسة تلك الشجرة بحرص خوفا من أن يقوم شخص

من غير أقارب الطفل بالأكل من الشجرة أو الشرب منها • لانه ان حدث وأكل منها غريب أو شرب فان التوأم الشبح سوف يذهب بعيدا ويختفى، وبعدها سوف يلحق به الطفل الموجود فى البيت ثم يمـوت • أما توأم (أى خلاص) الملك فيحفظ فى معبد صغير ويعين له حارس خاص للسهر عليه • ويقوم هذا الحارس باخراج الخلاص من لفافته مرة كل شهر ، ويضعه فى ضوء القمر ليسطع عليه بنوره ، ثم يمسحه بالزبد ، ثم يعرضه على الملك ليؤكد له سلامة قرينه ، ثم يعيده فى النهاية الى مكانه الامين داخل المعبد •

كذلك تعتقد قبائل جنوب أوغنـدا أن الخلاص عبـارة عن كائن بشرى • ويحكى أبناء بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية قصصا تكشف بوضوح عن الاعتقاد فى الخـلاص كتوأم للطفـل • ومن هـذه القصص تلك التى تحكى أن طفلا طلب من أبيه قوسين ورمحين صغيرين ليلعب بهما (وحده) فى الغابة • فقرر الاب أن يختبىء ليشاهد رفيق ابنه الغامض الذى يلعب معه • وقد رأى الاب من مخبأه ولدا آخر قادما من مكان دفن خلاص ذلك الطفل فى الاحراش ليلعب مع ابنه • فأدرك أنه هو توأم ابنه • وهناك حكايات عديدة من مناطق متعددة تكشف بوضـوح عن ظهور التوأم من خلاص الطفل • وان كانت هناك بعض الحكايات التى تروى ظهور ذلك التوأم من الحبل السرى الذى قد يلقيه الاهل باهمـال ولا يعتنون بدفنه •

والملاحظ أن الاعتقاد بذلك الشبح الصغير الذى يحل فى الشجرة المدفون تحتها الخلاص يرتبط بالمعتقدات الدائرة حول هذا الموضوع بتلك المتعلقة بشجرة الحياة ، والايمان بوحدة الهوية بينها وبين الطفل الذى تزرع من أجله • ففى « كالابار » فى غرب أفريقيا تزرع شجرة نخيـل صغيرة عند ميلاد طفل جديد ، ثم يدفن تحتها خـلاص ذلك الطفـل • ويعتقد أن الخلاص يضمن نمو تلك الشجرة ، كما أن نمو الشجرة يضمن هو الآخر نمو الطفل • واللافت للنظر أن ذلك المعتقـد وتلك الممارسـة

تنتشر فى نيوزيلندا وجـزر ملقا ، كمـا كان معروفا فى منطقـة بومرن Pommern بشمالى ألمانيا وفى بعض المنـاطق الاوروبيـة الاخرى •

ويقابل هذا المعتقد تماما ما تلجأ اليه قبائل الهوبا Hupa الهنـدية الحمراء فى كاليفورنيا من شق احدى أشجار الوقود الصغيرة عند ميلاد طفل جديد ، ثم يوضع الخلاص والحبل السرى بين نصفى الشجرة ، ثم تربط الشجرة مرة أخرى لتنمو وتعود الى حالتها الاولى • ولذلك يتوقف مصير الطفل وحالته فى حياته على مصير تلك الشجرة •

وقد حفل التراث اليهودى القديم بعديد من الممارسـات الطبيـة والمواد السحرية التى كانت تصنع من الرماد المتخلف عن حريق الخلاص• فكانوا اذا خلطوه باللبن يعتقدون أنه يفيد فى علاج أمراض هزال الاطفال الصغار • أما اذا خلط مع نبات أنف العجـل(١٧) ووضع فى وعاء صغير علق حول رقبة الطفل ، فانه يكون بمثابة حجاب قوى يقيه شر الحسـد المؤذى • أما فى الصين القديمة فكثيرا ما كانت تصنع من الخلاص أقراص طبية • كذلك يستخدم هنود الايمـارا (فى بوليفيا بأمريكا الجنـوبية) الرماد المتخلف عن حرق الخلاص كعلاج لبعض الامراض •

أما العادات الشائعة فى جاوة حول هذا الموضوع فتختلف عن كل ما ذكرناه • اذ تعمد نساء جاوة الى وضع خلاص الوليد فى وعاء صغير ، ثم تغطيه بالفواكه والزهور والشموع المضيئة وتترك ذلك الوعاء يطفو على سطح النهر ليلا لارضاء التماسيح • وربما كانت تلك الممارسة وما وراءها من معتقد راجع الى أن جميع الخلاص ليست سوى تماسيح (بمثابة أخوة أو أخوات لاقرانها البشر) أو لان التماسيح هى مثوى أرواح أسلاف أولئك الناس ، وأن تلك الممارسة تتم لكى تكون بمثابة عودة دينية لذلك التوائم اليهم •

---

(١٧) أنف العجل أو السمكة Snapdragons نبات ذو زهر أبيض أو قرمزى أو أصفر •

أما بالنسبة للتصرف فى الخلاص فى المجتمع الريفى المصرى المعاصر فيراعى قبل التخلص منه استبقاؤه فى حجرة الوالدة حتى تمر ثلاثة « آذانات » • حيث تعتقد النساء أن ذلك يحفظ الطفل من الشر والحسد • فاذا فرض أن الولادة تمت فى الفجر أو فى الصباح مثلا ؛ فلابد أن يبقى الخلاص حتى يمر آذان الظهر وآذان العصر وآذان المغرب •

ثم تحكى فوزيه دياب بعد ذلك عن كيفية التخلص من الخلاص : « ومن العادات المتبعة فى التخلص من الخلاص ، أن يرمى فى الصاغة اعتقادا بأن هذا يجعل الطفل ثريا فى المستقبل ، أو يرمى فى ماء البحر أو النهر أو الترع اعتقادا بأن هذا يجعل جروح الطفل فى المستقبل سريعة الالتئام بغسلها بالماء(١٨) • ويفضل البعض رميه للكلاب لتأكله أملا فى أن تكون الزوجة ولودا مثل أنثى الكلب المعروفة بكثرة خلفتها • وكثيرا ما تلجأ السيدات اللائى يموت أطفالهن فى سن معينة الى وضع الخلاص فى قدر صغير ، ومعه كمية من الملح ورغيف من الخبز الساخن • ويقفل القدر قفلا محكما ، ويحفظ فى مكان أمين • والمعتقد أن هذا الاجراء يحفظ الطفل من الموت •

هذا ويراعى فيمن يرمى الخلاص أن يكون ضاحكا فى أثناء رميه حتى ينشأ الطفل ضاحكا باستمرار • ومن المحرمات الواجب مراعاتها بهذا الصدد أن الخلاص اذا خرج من الحجرة التى بها السيدة الوالدة ، فلايدخل عليها مرة أخرى لاى سبب من الاسباب خوفا من مشاهرتها ؛ أى انقطاع حملها بعد ذلك »(١٩) •

---

(١٨) هناك تفسيرات أخرى أقرب الى حقائق التاريخ الثقافى ؛ أنظر محمد الجوهرى وزملائه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مرجع سابق ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(١٩) أنظر فوزيه دياب ، القيم والعادات الاجتماعية . مع بحث ميدانى لبعض العادات الاجتماعية ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص ٣١٦ — ٣١٧ .

٩ ــ الــدم :

يعتبر الانسان البدائى وكذلك الانسان الشعبى بصفة عامة أن الدم هو الحياة نفسها • فقد اعتادوا أن يروا دم الانسان يسيل فيموت الجسم، ولذلك أصبحوا يعتقدون أن هذا الدم انما هو الحياة نفسها تتدفق خارج الجسم بالمعنى الحرفى للكلمة • ويرتبط بهذا التصور العام نفسه الاعتقاد بأن روح أو نفس أى كائن انما توجد فى دمه ، ولذلك فاذا اسال الدم زهقت روح الكائن الموجودة فى دمه •

ولهذا السبب تكونت مجموعة كبيرة من المحرمات ، والخرافات ، والممارسات السحرية ، والطقوس الدائرة حول الدم والمتعلقة به • من هذا أن الدم الذى يسيل عرضا ــ لاى سبب ــ يجب التخلص منه أو ازالته بمنتهى العناية ودون أن يترك له أى أثر خشية أن يستخدمه أحد السحرة فى ايذاء صاحبه أو السيطرة عليه سيطرة سحرية • فنجد أنه يحرق ، أو اذا كان صاحبه ملكا أو رجلا له أهميته الخــاصة ، فان بعض رعاياه يبتلعونه • حيث يحتفظ كل ملك ببعض الرعايا لهذا الغرض بالذات •

كذلك كان يعتقد أن الارواح الشريرة ، والمشعوذين ، والشياطين ، والانسان الذئب (فى المجتمعات التى تعتقد فى هذا الكائن الخرافى) ••• الخ كل ذلك كان يمكن تجنب أذاه واخضاعه عن طريق الحصول على قطرة أو قطرتين من دمه •

كما أنه يجب الحرص على ألا يقع دم الانسان وكذلك دم كثير من الحيوانات على الارض لانه سوف يلقح الارض بروح صاحب ذلك الدم ، ومن ثم يجعل هذا الدم الارض التى يسقط عليها أرضا خطرة • اذ كان يعتقد أن روح صاحب ذلك الدم سوف تظل كامنة فى تلك الارض الى الابد عاملة دائما على الحاق الضرر وجلب الاذى لكل من يقترب منها • ولهذه الاسباب تنفر كثير من الشعوب من أكل أو شرب دم الحيوانات ، خوفا من أن تدخل الى جوفهم روح ذلك الحيوان • ولهذا نجد بعض الشعوب مثل

أبناء ولاية استونيا (على بحر البلطيق) ، وبعض قبائل الهنود الحمر الامريكيين ، واليهود يعملون على نزف دم الحيوان المذبوح للاكل بكل حرص ، بحيث لا يكـون هنـاك أى شك فى تلويث الاكلين بروح ذلك الحيـوان •

الا أننا نجد مع ذلك أن الممارسات العكسية هى الاكثر شيوعا • أعنى أنه لمـا كان يعتقد أن الدم يحوى الروح وأساس الحياة عند صاحبها ، ولمـا كان شرب الدم سيجعل من روح صاحبها جزءا من روح الشارب ، وجدنا كثيرا من الشعوب التى تمارس بعناية عادة شرب أو أكل الدم لتقوية نفسها وتدعيم كيانها بمصدر القوة والحياة • فنجد الاسرة تعطى دم الاب الذى يتميز بشجاعة فائقة لابنه لتجعله فى مثل شجاعة أبيه • كما يطعمون الطفل المريض الضعيف دم طفل آخر صحيح سليم البنية ليكتسب نفس قوته وصحته • ويحرص الرجال فى ساحة المعركة على شرب دماء الابطال الذين يسقطون فى القتال ـ سواء من أصدقائهم أو أعدائهم ـ لكى يضيفوا الى قوتهم قوة البطل الصريع وعظمته وشجاعته • ويحرص أبناء بعض قبائل سكان استراليا الاصليين على شرب دم محاربيهم الذين يتميزون بالشجاعة قبل خروجهم الى معركة • وبالمثل يعمد أبناء بعض المجتمعات الى أكل دم (ولحم) بعض الحيوانات لكى تنتقل خصائص وقدرات تلك الحيوانات الى الافراد الذين يأكلونها • فقد كان الصيادون النرويجيون فى الماضى يعمدون الى شرب دم الدببة ليحصلون على قوة الدب ، ومازال أبناء شعب الهوتنتوت (فى أفريقيا) يشربون دم الاسود ليحصلوا على شجاعة الاسد • ونجدهم فى الوقت نفسه يتجنبون أكل الارانب البرية خوفا من أن يكتسبوا ما تتميز به تلك الحيوانات من جبن •

ولمـا كان الدم هو الحياة نفسها ، فانه يمكن فى نظر المعتقد البدائى أو الشعبى أن يحمى الحياة أو يعيدها • ومن ثم نجد الدم يستخدم على نطاق واسع فى ميدان الطب الشعبى • فقد كان مرض الجذام يعالج بجعل

المريض به يستحم فى الدم • وقصة هذه الممارسة الشعبية محفوظة متواترة لدى كثير من الشعوب ابتداء من قدماء المصريين ، مرورا بالعصور الوسطى، حتى نسمع عن القصة المشهورة لذلك عن قسطنطين الاكبر الذى استحم فى الدم ليبرأ من الجذام •

ويظهر الدم فى الحكايات الشعبية — بصفة عامة — باعتباره ماء الحياة القادر على اعادة الحياة الى الميت • ويشير ماك ادوارد لينش الى حكايتين مشهورتين فى التراث العالمى هى حكاية « الاخوين » وحكاية « جون المخلص » اللتان تحويان وصفا لحمام الدم الذى استعين به لرد الحياة الى الرجال الذين تحولوا الى أحجار واعادة الحياة الى الموتى • كما نسمع فى الملاحم الاوربية كيف أن « زيجورد » قد أصبح شخصا يستحيل الحاق الاذى به لانه استحم فى دم التنين • كما كان الدم يعطى فى العصور الوسطى كعلاج للصرع • وهناك أسطورة ترجع الى القرن الثانى عشر الميلادى تحكى كيف وضع دم توماس بيكيت Thomas à Becket على عينى امرأة ضريرة ، فاستعادت به بصرها •

ولما كان الدم يحوى حياة صاحبه وروحه ، فانه كثيرا ما يعد أداة للثأر من صاحبه • فالجسد الميت ينزف فى وجود قاتله ، مما يعد — على سبيل المثال — وسيلة لتحديد القاتل ، وبالتالى تمكين أهل القتيل من أخذ الثأر منه • ويحكى ماك ادوارد لينش فى مقاله سالف الذكر طرفا من أسطورة شهيرة ترجع الى العصور الوسطى الاوربية ، هى حكاية ريتشارد قلب الاسد • فعندما اقترب ريتشارد من جسم والده على أرض معركة « ليمانز » Le Mans وأخذ يحدق النظر فى الجسد الميت ، بدأ الجسم ينزف الدم • هنا تألم ضمير ريتشارد وشعر بأنه كان المسئول عن موت أبيه ، فهرب من المكان على الفور ، وشرع لتوه فى تنظيم حملة صليبية ليخلص نفسه (من خلال هذا العمل الصالح !!) من خطيئة القتل• وهناك كذلك كثير من القصص التى تحكى كيف حاول بعض القتلة عبثا غسل دم ضحاياهم من على أيديهم أو من ملابسهم • ويظل الدم مكانه لكى

يتعرف الناس على القاتل وينتقمون للقتيل • ويعرف التراث المسيحى عددا من القصص الشهيرة الدالة على ذلك ربما كان أشهرها جميعا قصة الشيطان الذى حاول أن يهرب من الكنيسة أثناء تقديم الخبز المقدس فجرح بواسطة زجاج النافذة فظلت بقعة دمه على ذلك المكان لا يمكن محوها أبدا •

ثم هناك كذلك بعض المخاوف وبالتالى المحرمات (التابو) المتعلقة بدم الحيض • فهناك اعتقاد عام لدى كثير من الشعوب بأن دم الحيض انما هو نتيجة عضة ثعبان ، أو سحلية ، أو أى حيوان آخر ، أو ربما عضة روح شريرة • وهو فى نظر العقلية البدائية ظاهرة شاذة . ومن ثم يتوجب خشيته لسبب مزدوج : أولا لانه دم غير طبيعى ، ثم لانه دم امرأة • ومن الممارسات الشائعة فى كثير من الثقافات عزل المرأة طوال فترة الحيض • فهناك بعض القبائل التى تحبس الحائض فى قفص فوق الأرض بحيث لا يلامسها ، ومن ثم لا تلوث أى شىء • اذ يعتقد أن خروج المرأة الحائض من عزلتها هذه يمكن أن يلحق بجماعتها من الكوارث والمشكلات ما يعوق سير الطبيعة نفسها ويهدد الكون بأجمعه • وقد أورد بلينوس Pliny قائمة بعينة من تلك الكوارث فى كتابه « التاريخ الطبيعى » •

وترتبط فترة الحيض عند المرأة فى مصر بكثير من الممارسات والمعتقدات ، اذ توصى المرأة الفتاة المراهقة عند أول حيض باحتضان نخلة أو زير ، والفكرة من وراء ذلك أن تسمن ويتضخم لحمها(٢٠) • كما يعتقد أنه اذا مرت الحائض فى مزارع الباذنجان أحرقتها • ومن القيود المفروضة على الحائض ألا تشارك فى عجن العجين ، أو فى عمل بعض أصناف الطعام ، كما أنه لا يصح أن تدخل على شخص مريض بعينيه ، لانها ان فعلت ذهب بصره •

---

(٢٠) على أساس أن السمنة كانت من معايير جمال المرأة حتى وقت قريب ، انظر مزيدا من الشواهد عند محمد عبد السلام الشقيرى ، السنن والمبتدعات المتعلقة بالاذكار والصلوات ، القاهرة ، مطبعة المدنى ، د . ت ، ص ٢٣ •

كمـــا أن الدم كان يلعب دورا كبيرا فى طقوس أغلب الاديان التى شهدتها البشرية • من هذا مثلا أن طقس شرب دم الاله يستند الى الاعتقاد بأن سمات وخصائص ذلك الاله سوف تنتقل بهذه الطريقة الى رعاياه • ويشير ليتش الى أن قدسية الكأس المقدسة ، وهى تلك الكأس التى شرب منها المسيح أثناء العشاء المقدس والتى ترد الاشارة اليها فى حكايات الكأس المقدس العديدة ، هذه القدسية انما تستند الى اعتقاد مؤداه أن تلك الكأس قد احتوت يوما دم المسيح • فهى بذلك ــ فى نظر المعتقد الشعبى ــ وعاء واهب للحياة • وتدلنا تلك القصة على مدى محاولة المعتقدات الشعبية التشبث بأسباب الحياة تحت كل الظروف • فتلك الكأس المقدسة كانت موضعا للبحث الطويل بعد انتهاء حياة المسيح على الارض ، وظل البحث عنها مجالا خصبا للعقلية الشعبية كى تنسج حوله الروايات ، وتخترع التفاصيل ، رابطة كل هذا بتراث زاخر من المعتقدات التى كانت موجودة من قبل فى عقول الناس ، والتى حاولت ترسيخ نفســـها بتلك الصبغة المسيحية ، كى تكتب لها الحياة والاستمرار فى ظل الثقـــافة المسيحية الجديدة التى لم تكن لتقبل مثل هذه الخرافة لو لم تصطبغ بصبغة مسيحية ظاهرة • وهكذا يمكن أن نصادف هذا الوضع على مدى التاريخ ، خاصة فى ظل الاديان السماوية المنزلة التى كانت تتمتع ــ خاصة فى عصورها الاولى ــ بحس نقى يريد أن يتصـــدى للخرافة ويقتلعهـــا من جذورها فى صدور الناس • فتتكتل عشرات الموتيفـــات الاعتقـــادية الشـــعبية (الخرافية ــ وهى خرافية من وجهة نظر الدين الجديد) وتلتف حـــول موتيفة لها قدسيتها فى هذا الدين الجديد ، فتتسرب الى تراثه وتنفذ من بين دفاعات المقاومة العنيفة ، لترتع فى نفوس المؤمنين بوصفها عنصرا « نقيا » من العناصر الاعتقادية للدين الجديد •

ولعل أشهر الطقوس الدينية هى طقوس تقديم الاضاحى والقرابين للآلهة ، حيث نرى بوضوح أن كل ضحية انما هى فى جوهرها ضحية أو قربان دم (وليس قربان لحم) • حيث يجب ألا تقدم قرابين عبارة عن حيوان ميت ، أو قطع من لحم حيوان مذبوح فى مكان آخر ، وانما يجب

اسالة دم حيوان الاضحية أمام المذبح أو فى أثناء المناسبة المعتمدة لذلك • فالانسان يتقرب للآلهة ويسترضيها بتقديم أفضل شىء فى الوجـــود ، ألا وهـــو دم أول أبنائه • ثم تطـــورت المجتمعات عن تلك الخطـــوة ، وأصبحت تقدم الحيوانات بدلا من الوليد الاول • وكان يشترط فى كل تلك الاطوار أن يسال دم الاضحية بكمية كبيرة على مذبح الاله • ولعله من اللافت للنظر أنه فى كثير من الاحوال كان مقدموا الاضحية يشاركون فى الاكل من لحمها • كذلك تعرف بعض الديانات أن الاله كان يضـــحى بدم ابنه فداء للانسانية جمعاء • ومن هنا أصبح قربان الدم بمثابة عهد وميثاق بين طرفين ، بين الاله ورعيته ، أو بين انسان وانسان •

اذ لما كان الدم مادة بمثل هذه الدرجة من الاهمية والخطـــورة ، أصبح من الطبيعى أن يستخدم كأداة ايجابية فى تحقيق وشائج أوثق بين الانسان وأخيه الانسان ، وفى تأكيد العهود والمواثيق • ويمكن القـــول بصفة عامة بأن ميثاق الدم مصطلح ينطبق على أى اتفاق يتم تأكيده أو توثيقه باستخدام دم الطرفين المتعاقدين • ويتم ذلك عن طريق شرب الدم المراق تأكيدا لهذا الميثاق ، أو يمزج مع الاكل ويؤكل معه ، أو يدخن، أو يستحم فيه ، أو يمزج دم الطرفين ويراق على الارض • ومن الامور الجوهرية فى ميثاق الدم هو عملية تبادل دم الطرفين ، بحيث يتصـــل كل طرف بدم الطرف الآخر •

ونجد اليوم ــ فى المراحل الحديثة لتطـــور الثقـــافة ــ أن بعض الاتفاقيات الحقيقية أصبحت تكتب بالدم أو توقع بالدم • كعهود المبايعة أو التأييد التى يرسلها المواطنون الى رؤســـاء الدول أو الملوك مكتوبة بالدم تأكيدا لقوتها وصدقها • وقد كانت مواثيق الدم على الدوام أقوى وألزم من الاتفاقات العارضة كمواثيق الخبز والملح (انظر عندنا القسم بالعيش والملح) ، لانها تخرج أرواح الاطراف المتعاقدة • وأهميتها فى نظر الانسان البدائى أن أى طرف من الطرفين لن يستطيع الحاق الاذى بالطرف الآخر دون أن يعود ذلك الاذى على فاعله لان دمه ممزوج بدم زميله •

ومن الاشكال الشـــائعة لمـــواثيق الدم ذلك الطقس الذى يتم بين طرفين متعاقدين أو أكثر لتأكيد اتفاق أو عهـــد أبرم بينهم ، أو التأليف بينهم فى سبيل قضية معينة • ويتم ذلك عن طريق شرب كل منهما من دم الآخر ، أو أن يشرب كلاهما من دم شخص ثالث محايد أو حيوان آخر • ويحكى ماك ادوارد ليتش عن طقس معـــروف من طقـــوس مـــواثيق الدم(٢١) • فعند شعب البومالى Boumali — على سبيل المثـــال — يتم اقرار ميثاق السلام بين قريتين من قرى ذلك الشعب عن طريق جمـــع سكان كل قرية منهما ، ثم يقتل أحد العبيد ، ويقسم جسده الى نصفين ، نصف لكل قرية من القريتين • ثم يقوم كل شخص حاضر هـــذا الطقس بأكل قضمه من لحم ذلك العبد وشرب قطرة من دمه •

أما أشهر أنماط ميثاق الدم على الاطلاق فهو أخـــوة الدم ، التى كانت تمارس — ومازالت الى حد ما — عند جميع الشـــعوب بشكل أو آخـــر • ويستمد مزج الدماء فى هذه الحالة ضرورته من أن الروابط الدموية القبلية (أى القرابة الدموية الفعلية) روابط على جانب كبير من القوة ، وأن أفراد الاسرة الواحدة يحرصون كل الحرص على حمـــاية بعضهم البعض ، وكذلك الثأر لبعضهم عنـــد الضرورة • ومن هنا فان الشخص الذى لا اخوة له هو انسان فى وضع سىء وضعيف من عـــدة وجوه • ولذلك يجد نفسه حريصا على الدخول فى ميثاق دم ، هو هنا أخوة دم ، مع نظير له يحتاج مثله الى الحماية والى الدعم • ومن شأن هـــذا الميثاق أن يجعلهما اخوة شرعيين (أى من وجهة نظر المجتمع) أو اخوة حقيقيين • ويترتب لكل منهما قبل الآخر نفس حقوق الاخـــوة ، كمـــا تترتب عليه قبله نفس واجبات الاخوة • فيصبح من واجب أحدهما أن يتزوج أرملة « أخيه » بعد وفاته (اذا كانت القبيلة تأخذ بمثـــل هـــذا النظام)(٢٢) • ويرث ثروة « أخيه » •• الخ •

---

(٢١) انظر قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ١٤٩ .

(٢٢) يعرف هذا النظام باسم «الزواج الليفرانى» Levirate Marriage اى زواج الرجل من أرملة أخيه . عن معالم هذا النظـــام وتفاصيله ، =

ولا شك أن تفاصيل هذه الطقوس تختلف من شعب الى آخر ومن عصر الى آخر ، الا أنها تتفق جميعا على نقطة جوهرية واحدة هى تبادل الدم الذى يعد بمثابة خلق لعلاقة الاخوة الشرعية • ويورد ماك ادوارد ليتش فى مقاله المذكور طقسا جرمانيا قديما يوضح هذا المعتقد • يتعين على الرجلين اللذين يريدان أداء هذا الطقس أن يشيدا قوسا كاملا من الطين الممتزج بالعشب ، بحيث يصل طرفاه الى الارض • ثم يزحفان تحت هذا القوس ، ثم يفتحان وريدا فى رسغ كل منهما بحيث يسيل منه الدم ، ويمزجان دمهما ببعضه ثم يسيل على الارض تحت ذلك القوس وهما راقدان زاحفان • وبعد أن يتم ذلك المزج وتتم اسالة الدم يواصلان الزحف خروجا من تحت القوس كأنما ولدا من جديد من الارض الأم ، فيصبحا أخوين الى الابد لهما شرعية نفس اخوة الدم الحقيقيين ولا يختلفا عنهم فى شىء •

والملاحظ أن بعض رؤساء القبائل والقادة كانوا يستفيدون من تلك الطقوس لضمان أقصى قدر من الولاء ومن التفانى فى الخدمة من جانب أتباعهم • ويتم ذلك عن طريق الدخول فى ميثاق دم مع كل واحد منهم بحيث يصبح كل منهم أخا له • وتتصف تلك المجموعة التى يجرى معها رئيس القبيلة أو الزعيم المؤاخاة بأنها ترتبط فيما بينها — من خلال صلة كل واحد من أفرادها بالزعيم — برابطة أخوة • وتتكون من تلك الجماعات جماعات المحاربين المنظمة كجماعة الكوميتاتوس الجرمانية ، وجماعة الفرع الاحمر الايرلندية ، ورفاق شارلمان ، وفرسان بروسيا ، وفرسان المائدة المستديرة •

= انظر فصل « الزواج » فى : بيلزوهويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور السيد الحسينى ، الجزء الاول ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٥ .

١٠ ــ الشعر والاظافر :

الشعر والاظافر وكذلك صماخ الاذن .. الخ مخلفات الانسان أو الاجزاء التى كانت تكون قطعة منه ، ثم قلمت أو نظفت فانفصلت عنه . لذلك تحرص كثير من شعوب العالم على المحافظة الشديدة عليها لان لها صلة وثيقة بشخصية صاحبها ويخشى أن تصل الى يد عدوه ، فيستطيع أن يمارس عليه سحرا ضارا بواسطتها(٢٣) .

ومن مظاهر الاهتمام بالشعر عملية قص « شعر البطن » ، وقص أظافر الطفل لاول مرة. فشعر البطن يجب العناية بالتصرف فيه اذ لايصح اطلاقا القاؤه هكذا ، بسبب صلته الوثيقة بشخصية صاحبه ، وقد يتخذ « أثرا » له يمارس عليه بعض العمليات السحرية « الاعمال » التى تنعكس على الطفل مباشرة . ونفس الشيء بالنسبة لبقايا أول أظافره ، فهى أيضا جزء من كيان الطفل يجب التصرف فيها بحذر(٢٤) .

وتعد الاظافر ــ وكذلك قلاماتها طبعا ــ محورا لعدد كبير من المعتقدات والممارسات المتفاوتة أشد التفاوت . فهى تدخل فى سحر الحب بأنواعه ، كما تلعب دورا فى التنبؤ بمعرفة طالع الشخص وتحديد أحبائه وأعدائه (من واقع البقع البيضاء التى قد تكون موجودة عليها) ، كما تستغل على نطاق واسع كما نعلم لايقاع الضرر بصاحبها أو ممارسة السحر الضار عليه ... الخ(٢٥) .

---

(٢٣) يقال ان بعض جماعات الهنود يلقون قصاصات الشعر وقلامات الاظافر من على المنحدرات الصخرية الشاهقة لتأخذها الارواح والكائنات فوق الطبيعية التى يعتقدون فى وجودها هناك . انظر مزيدا من التفاصيل فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٣٩٧ ، وانظر كذلك أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٢٤٩ .

(٢٤) أنظر التفاصيل فى دراستنا عن « الطفل فى التراث الشعبى » ، مقال بمجلة عالم الفكر ، ١٩٧٩ ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠ ــ ٤١ .

(٢٥) أنظر رسالتنا للدكتوراة عن السحر الاسلامى المصرى ، مرجع سابق ، فصل الممارسة السحرية .

وقد أشار ريمون جيمسون فى مقاله عن الاظافر بموسوعة فونك للفولكلور الى طائفة من تلك المعتقدات والممارسات الشائعة حول الاظافر فى مختلف تلك الثقافات(٢٦) • ففى الجزر البريطانية والولايات المتحدة يعتقد أن الوليد سيصبح لصا اذا قصت له أمه أظافره قبل أن يبلغ العام من عمره • ولهذا السبب تعمد الامهات الى قضم أظافر أطفالهن فى الفترة الاولى من عمرهم على الاقل •

وهناك معتقد شعبى يرى أن البقع البيضاء على ظفر الاصبع الابهام تعنى أن صاحبها سوف يحصل على هدايا ، أما وجود تلك البقع على اصبع السبابة فتدل على عدد أصدقاء الشخص ، ووجودها على اصبع الوسطى يدل على عدد أعدائه • أما البقع التى توجد على اصبع البنصر من اليد اليسرى فتعنى أنك سوف تتسلم خطابا أو أن الحبيب سيحضر لرؤياك • وتعنى البقع على اصبع الخنصر أنك بصدد القيام برحلة •

ومن المعتقدات الذائعة فى عدد من الثقافات أن تقليم الاظافر يقوى البصر • واذا قلمتها والقمر فى المحاق فانها لن تنمو بسرعة • أما اذا قلمتها يوم جمعة فسوف يؤدى ذلك اما الى شفاء آلام بالاسنان أو يسبب لك مثل هذه الآلام(٢٧) • بل ان الحلم بتقليم الاظافر له دلالة فى المعتقد الشعبى أيضا • فعند زنوج جنوبى الولايات المتحدة أن رؤية تقليم الاظافر فى الحلم تنبىء بحدوث فشل ما لصاحب الرؤيا فى حياته • وتقليم الاظافر يوم الاثنين يعنى أن هناك أخبار جديدة ستصل للشخص، وتقليمها يوم الثلاثاء يعنى أنه سيحصل على أحذية جديدة • أما تقليمها

---

(٢٦) انظر قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ٣٧٨ — ٣٧٩ •

(٢٧) انظر تفسيرنا لظاهرة الازدواج فى المعتقد الشعبى ، أن تعنى الظاهرة الشىء أو عكسه حسب الظروف ، فى الفصل الاول (التمهيدى) من هذا الكتاب •

يوم الاربعاء فسوف يضطرك الى السفر ، ويوم الخميس يعنى الحصول على أحذية جديدة أيضا ، أو اصابة فاعل ذلك بالمرض • وتقليم الاظافر يوم الجمعة يعنى اما الحصول على مال أو الاصابة بآلام فى الاسنان • أما اذا قلمتها يوم السبت فكن على يقين من أنك سترى حبيبك يوم الاحد • أما اذا قلمت يوم الاحد فسوف يجلب ذلك الحظ السيء : فتدخل فى عراك ، أو ترى الدم سائلا قبل حلول الصباح ، أو ينفذ الشيطان الى جسمك •

وعلاوة على ذلك تدخل قلامات الاظافر فى الاعمال السحرية التى تتصل بالحب والعواطف ، خاصة اثارتها وتأجيجها • ليس فى ثقافتنا العربية فحسب ، بل فى ثقافات كثير من الشعوب • فنجدها منتشرة أوسع الانتشار لدى زنوج جنوبى الولايات المتحدة (فاذا نقعت قلامات أظافرك فى كأس من النبيذ ، ثم قدمت هذا النبيذ للشخص الذى تحبه ، فانه سيحبك حبا شديدا) • (واذا دفنت قلامات أظافر شخص ميت فى كيس صغير تحت عتبة باب عدوك ، فسوف يشعر عدوك هذا بالقشعريرة ويظل كذلك الى أن تبعد هذا الكيس من مكانه) • (واذا نثرت قلامات أظافر شخص ما فى طريق يكون من المؤكد أنه سيسير فيه ويخطط فوقها ، فان ذلك الشخص سوف يخضع لسيطرتك ويصبح طوع بنانك للخير أو للشر على السواء)(٢٨) •

وتستخدم الاشكال التى تتخذها قلامات الاظافر بعد تقليمها ، كأن تتخذ شكل الهلال ، أو الندوب أو الاشكال الموجودة عليها •• الخ فى التنبؤ بمستقبل الشخص وما سيجرى له من أحداث ، تماما كما هو معروف عن قراءة الكف ومعرفة الطالع •• الخ •

---

(٢٨) أنظر مزيدا من النماذج فى قاموس فونك للفولكلور ، المرجع السابق ، نفس الموضع .

١١ ــ العين :

العين من حيث شكلها وما يعتريها من ظواهر (خاصة رف العين) موضع اهتمام عدد من المعتقدات الشعبية • « فالعين اذا كانت صغيرة الحدق دلت على سوء دخيلة ، وخبث شمائل • واذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد • والعين المتوسطة فى حجمها دليل فطنة وحسن خلق ومروءة »(٢٩) •

كذلك رف العين ، « فاذا رفت العين اليمنى تنبأ صاحبها بحدوث شر ، واذا رفت العين اليسرى تنبأ بحدوث خير »(٣٠) •

ومن العلامات الجسمية التى تثير المعتقد الشعبى ويتخذ منها مواقف معينة ظاهرة التقاء الحاجبين عند الشخص رجلا كان أو امرأة • والشائع فى المجتمع المصرى (شواهد من القاهرة ومناطق حضرية أخرى) أن مثل هذا الشخص ــ بصرف النظر عن كونه رجلا أو امرأة ــ يكون شخصا سعيد الحظ موفقا فى حياته •

ولكن اذا رجعنا الى تراث الشعوب الاخرى نلقى نظرة على موقفهم من نفس الظاهرة وجدنا بعضها يعتبرها علامة من علامات الجمال ، بينما تعده مجتمعات أخرى أنه من نوع الانسان الذئب ، أو مصاص الدماء ، أو ممارس السحر الضار • وهناك شواهد على هذه المعتقدات من جنوب روسيا ، واليونان ، وبوهيميا ، وألمانيا ، والدانمرك ، وأيسلندة ، والهند •

أما فى انجلترا والصين فيعتقد أن الشخص الذى يلتقى حاجباه شخص سعيد الحظ ، أما نظرتهم الى الفتاة التى تتميز بنفس الظاهرة

---

(٢٩) النويرى ، نهاية الارب ، مرجع سابق ، الجزء الثالث ، ص ١٤٩ .

(٣٠) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

فيختلف فيها الرأى ، ففى بعض المجتمعات يعتقد أنها ستوفق فى زواجها، ويعتقد فى مجتمع آخر أنها لن تتزوج اطلاقا أو أنها ستكون زوجة سيئة(٣١) .

١٢ ـ القلب :

تعتقد بعض الشعوب أن أكل قلب شخص ما ينقل الى آكله خصائص ومميزات الشخص الذى يؤكل قلبه . والملاحظ أن هذا المعتقد معروف عند كثير من شعوب العالم ، وردت عنه اشارات متعددة من عصور متلاحقة . وان كان هناك بعض الاختلاف فى تحديد المقصود بالقلب ، هل هو القلب فعلا ، أم الكبد ، والسبب أن كليهما كان يعتقد أنه مصدر الدم أو مركز الروح فى الجسم ، وبالتالى موطن القوة ومركز السمات المميزة لصاحبه(٣٢) .

ويشير قاموس فونك الى عديد من الشواهد المعروفة من العصر الحاضر على هذه الممارسة(٣٣) . فقد عمد أبناء الاشانتى الذين قتلوا السير تشارلز ماكارثى فى عام ١٨٤٣ الى أكل قلبه كى يكتسبوا نفس القدر من الشجاعة التى كان يتحلى بها .

وتحكى تقارير الانثروبولوجيين أن هذه العادة منتشرة أيضا عند الباسوتو Basuto فى أفريقيا . وتشير دراسات أخرى الى أن الشائع فى بعض مناطق غرب أفريقيا أن يأكل خليفة الملك قلب سلفه الملك السابق.

وتعتقد شعوب أخرى أن أكل قلب الاسد ، أو الضبع ، أو الذئب أو الدب يمنح فاعله الشجاعة والقوة التى يتميز بها كل من تلك

---

(٣١) انظر قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٣٦٠ .
(٣٢) تجدرة الاشارة هنا الى قصة هند مع الحمزة بن عبد المطلب فى غزوة احد .
(٣٣) انظر قاموس فونك ، مرجع سابق ، ص ٣٣٦ .

الحيوانات • أو يعتقدون أن أكل قلب ابن آوى أو الارنب يصيب فاعله بالجبن ، أو أن أكل الثعبان يهب فاعله موهبة التفـوق فى فهم اللغـات والتحدث بها •

١٣ ــ الكبـد :

قال أفلاطون أن الكبد هو المرآة التى تسقط عليها أفكار العقـل وتنعكس كصورة للروح • كما جاء فى الاوذيسة أن الكبد هو موطن الرغبة فى الجسد ، ومن ثم فان أكل الكبد يثير الرغبة لدى الآكل • وقـد أدعى فيلسوف فرنسى فى أثناء القرن السابع عشر أن العقل ، والكبد ، والقلب هى أول أجزاء الجسم خلقة ، ومن ثم فهى مقر الروح عند الانسـان • (كما أن هناك حكايات شعبية تذهب الى الرأى نفسـه ، انظـر طراز رقم E 714.)(٣٤) •

الا أن أشهر الصفات المعروفة عن الكبد أنه موطن القوة والشجاعة عند الشخص • وتتردد هذه الفكرة عند شعوب عديدة متباعدة عن بعضها أشد التباعد : كالعرب الجاهليين ، وشعب الفيدا فى سـيلان ، وبعض قبائل منطقة الهند الصينية ، وشعب البانتو ، وبعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية ••• الخ • كل أولئك كانوا يأكلون أكباد ضـحاياهم الذين يسقطون فى المعركة لكى يكتسبوا شجاعتهم وقوتهم (نشير هنا مرة أخرى الى قصة هند مع سيدنا حمزة بن عبد المطلب) •

كما نجد أبناء شعب بتشوانا يأكلون كبد الثور ليزدادوا شـجاعة وذكاء • وان كان يعتقد أن أكل قطعة واحـدة منه تصـيب الشـخص بالنسيان ، ولذلك تقبل على أكلها النسـاء اللائى يردن نسـيان أشـياء كثيرة • ويعتقد أبناء بعض قبائل أفريقيا الوسطى أن أكل كبد التمساح

---

(٣٤) انظر هذه المادة فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ٦٣٦ ــ ٦٣٧ •

يقوى الروح • وكان الهنود فى القرن الثالث الميلادى يأكلون كبد التنين لكى يفهموا لغة الحيوانات •

وهناك شعوب أخرى تفضل أكباد أنواع معينة من الحيـــوانات • فالرومان كانوا يعتبرون كبد وحيد القرن(٣٥) شـــيئا عظيم القيمة ، وان كانوا يقبلون على أكل كبد النسر • أما الاغريق فكانوا يقبلون على أكل كبد الاوزة • وكان الاوربيون فى القرن السادس عشر يقاومون الأعمال السحرية الشيطانية الضارة بأكل كبد قطة سوداء •

وتدل آثار المصريين القدماء على أنهم كانوا فى عهد قديم يرجع الى عام ١٨٥٠ قبل الميلاد يعالجون العشى (العمى الليلى) بأكل الكبـــد • وهو استخدام مازال معروفا حتى أيامنا هذه بسبب كون الكبد غنيا بمادة الكاروتين • وكان بلينوس يوحى بأكل كبد ابن عرس لعلاج أمراض الكبد عند الانسان • أما هنود الاوماها الحمر فكانوا لا يأكلون الكبد للشجاعة فحسب ، وانما لتحسين وتجميل الصـــوت أيضـــا • أما زنوج منطقـــة المسيسبى فى أمريكا فكانوا يضـــعون كبد العجل على الجـــرح للتعجيل بشفائه •

ومعروف أن التنبؤ بالغيب باستعمال الكبد يعد أقدم وسائل التنبؤ المعروفة على الاطلاق ، وقد صمم الاثريون نمـــاذج من الصلصال أو الحجر لبعض نماذج من الكبد مبين عليها العلامات التى يلاحظها العراف ويتنبأ على أساسها • ومازال يعتقد حتى الآن فى ايطاليا أن أكل كبد المرأة توهب آكلها القدرة على استخدام السحر ، هذا على الرغم مما نعرفه من أن أكل كبد المشعوذ كان أقـــوى ترياق يمكن استعماله ضـــد الاعمـــال السحرية • ويعمد بعض زنوج منطقة المسيسبى الى دفن كبد الشخص

---

(٣٥) وحيد القرن Unicorn حيوان خرافى له جسم فرس وذيل اسد وقرن وحيد فى وسط الجبهة .

المقتول بعيدا عن جثته ، على اعتقاد أن القاتل سوف يجد نفسه مدفوعا الى ذلك المكان المدفون فيه الكبد ، ومن ثم يمكن التعرف عليه كما يقوم الاسكيمو بأكل كبد ضحيتهم لتهدئة رغبة الثأر عند أهله ولتهدئة الشبح الذى يتخلف عن قتله •

كما يعتقد أن كبد الشخص « الاشول » يقع فى الجانب الايسر من جسمه •

١٤ ــ الاذن :

يعد طنين الاذن اليمنى فى أوربا الشمالية فألا طيبا بالنسبة لصاحبه • ويعرف التراث الهندوكى اشارات مماثلة لهذه الفكرة ، وان كان يضاف الى ذلك أن طنين الاذن اليسرى عند المرأة يحمل نفس الدلالة• وفى التراث الشعبى الهندى الذى يبحث فى الخصائص الفيزيقية للانسان نجد أن الرجال الذين يتميزون بأذنين طويلتين يكون مؤكدا أنهم أشخاص فاسقون لا يلتزمون القواعد الخلقية • بينما نجد فى التراث الشعبى لمجتمعات أخرى أن قرب الاذنين من رأس الشخص يدل على أنه بخيل •

والملاحظ كذلك أن حلى الاذن اذا لم تكن ملبوسة بهدف الزينة فانها تكون فى العادة جزءا من الاحجبة الكثيرة التى يلبسها الناس لحماية فتحات الجسم ضد المؤثرات ، والارواح الشريرة ، والقوى التى تسبب الامراض •

وهناك بعض القصص الشعبية الهندوكية التى تحكى أن اللصوص كانوا يعاقبون ــ عند اكتشافهم ــ بقطع آذانهم (فى مقابل قطع اليد فى التراث الاسلامى) • ونجد أن مجتمعات أخرى كانت تعاقب المرأة غير الوفية بقطع أذنيها • بينما نجد أن بعض مجتمعات الشرقين الاوسط والاقصى كانت تعاقب المرأة على هذه الجريمة بجدع الانف وليس الاذن•

ويحدثنا النويرى أن وجود الشعر على الاذن يدل على جودة السمع عند صاحبه ، وأن الاذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان(٣٦) • أما عن طنين الاذن فيحدثنا أحمد أمين فى « قاموسه » أنه « اذا طنت الاذن اعتقد بعض المصريين أن أحدا يذكر من طنت أذنه فى تلك الساعة فيضع يده عليها ، ثم لا يزال يذكر أسماء من يظن أنهم ذكروه بعد أن يسد أذنه بوضع يده عليها • فاذا ذكر الاسم الذى كان يذكره سكت الطن • ويقولون اذا طنت الودن اليمنى عدو مبين ، واذا طنت الودن الشمال جيبى سال » • كما أن طنين الاذن نذير بسماع أخبار جديدة ، حيث يقول المثل الشعبى : « يا ودن طنى كل يوم خبر جديد »(٣٧) •

١٥ ــ الايدى :

على الرغم من أن التفسير العام لليدين وما تحويهما من علامات هو من اختصاص ما يسمى بعلم الكف ، الا أن اليدين ــ مع ذلك ــ تلعبان دورا مختلفا فى التراث الشعبى(٣٨) •

ــ فاليدان تستخدم كلغة رموز أساسية عند الصم والبكم ، وهى فى ذلك متطورة الى حد أنه يمكنهم التعبير عن معان كثيرة بواسطتها •

ــ ويستخدم اصبعا السبابة والوسطى ــ عند الشعوب الغربية ــ مفرودين بحيث يتخذ شكل حرف ٧ اللاتينى للدلالة على النصر (فهو الحرف الاول من كلمة Victory •

ــ كما تستخدم اليدان فى كثير من الممارسات الدينية فنلاحظ أن

---

(٣٦) النويرى ، نهاية الارب ، مرجع سابق ، الجزء الثالث ، ص ١٤٩ .
(٢٧) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد المصرية ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .
(٣٨) انظر التفاصيل والشواهد الواردة فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ٤٧٧ ــ ٤٧٨ .

اطباق المتدينين على يديهم — بشـــكل طقوسى فى لحظـــات معينة من الممارسات الدينية — يعد أمرا هاما فى عبارات بعض طوائف البوذيين ، واللامين ، والمسيحيين ، وغيرهم من الجماعات الدينية .

— ونعرف أن وضع اصبع الابهام محشورا بين اصبعى الوسطى والسبابة يتخذ كوسيلة لابعاد العين الشريرة فى الصين وايطاليا وغيرهما .

— كما أن حك الانف بالاصبع يعد حركة مهنية واستفزازية عنـــد أغلب شعوب العالم المعروفة .

— وتستخدم اليدان على نطاق واسع وبشكل معقد فى الجمعيات والعلاقات الاخوية أو التضامنية على نحو أو آخر ، وبحيث يمكن القول بأن هناك لغة لتلك الجمعيات تقوم على استخدام اليدين لكى لا يفهمها العالم المحيط بهم ، وليسهل عليهم التعرف على بعضهم .

— وتستخدم اليدان فى بعض بلاد الشرق لطرد الارواح الشريرة من الجسم ، وذلك عن طريق اللف بها حول رأس الشخص المصاب ، كما يحدث فى حالة « الرقوة » .

— وتكتسب عقوبة قطع يد السارق دلالة خاصة تشير الى أهمية اليدين فى نظر المجتمع العربى الاسلامى ، لانه بدون هذه الاهمية لايكون لمثل هذه العقوبة دلالتها ، لاننا رأينا فى موضع سابق ، كيف أن بعض المجتمعات الاخرى تعاقب على نفس الجريمة بجدع أنف السارق .

— ونذكر أيضا أن المسلمين يعتبرون اليد اليسرى نجسة أو مكروه استخدامها (فى تناول الطعام مثلا أو المصافحة .. الخ) ، وعند الغزالى تعليمات كثيرة عن استخدامات كل من اليدين .

— وأخيرا نلاحظ أن أكلان اليد له دلالة خاصة فى المعتقد الشعبى ،

فاذا كان فى اليد اليمنى كان ايذانا بأنه سيضرب أحـــدا ، واذا كان فى اليسرى كان ايذانا بأنه سيسلم على أحد أو سيقبض مالا(٣٩) •

١٦ ــ الاصابع :

معروف أن الاصـــابع هى الاخرى محور لعـــديد من المعتقـــدات والممارسات الشعبية • وتغطى تلك المعتقدات والممارسات مجالا واسعا من ألوان الحياة ابتداء من ضرورة عقد الاصابع عند اجتياز أحد المقابر، حتى الاحترام الكبير الذى نلحظه للاصابع كبقايا مقدسة لجسد صاحبها ، الى الطقوس التى توجد عند بعض الشـــعوب البـــدائية الخاصة ببتر الاصابع فى بعض المناسبات الدينية الخاصة •

فعند شعب البنجا Benga فى غرب أفريقيا ــ على سبيل المثال ــ يحتفظون فى كيس صغير بالعقل (جمع عقلة) الاولى لاصابع أسلافهم الموتى ، (الى جانب قلامات أظافرهم وخصلة من شعرهم) • وتضاف الى ذلك الكيس عقلات أصـــابع وقـــلامات أظافر أفراد الاسرة الذين يموتون بعد ذلك • ويحتفظ بتلك المجموعة بعناية لتسلم من جيـــل الى الجيل التالى بكل حرص كبقايا مقدســـة من شـــأنها أن تحقق الارتباط المطلوب بين أفراد الاسرة الاحياء وأسلافهم الموتى • كذلك يحتفظ أبناء جزر السولومون Solmon بنظام أصابع زعمائهم وأبطالهم فى أضرحة القرية ، وتؤدى لها طقوس الاحترام والتقديس •

وتنتشر لدى كثير من الشعوب البدائية ممارسات جدع بعض أصابع اليدين لاغراض سحرية أو دينية ، كنوع من تقديم الاضاحى للآلهة أو محاولة لاسترضائهم ، أو لتحقيق علاج أو نجاح أقارب الشخص المضحى نفسه • كما تقطع بعض أصـــابع اليدين كتعبـــير عن الحـــزن فى بعض

---

(٣٩) انظر أحمد أمين ، القاموس ... ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

المناسبات أيضا • فنعرف عن جزر مينجى — على سبيل المثال — أن وفاة زعيم معين تتطلب التضحية بمائة اصبع • وأحيانا يقطع اصبع طفل صغير أو عقلة منه كقربان عند وفاة والده • وهناك بعض الشواهد على أن نساء شعب الهوتنتوت تقطع عقلة اصبع لها عند وفاة زوجها • وفى جزر التونجا Tonga يقطع الناس عقلة اصبع الخنصر كقربان للآلهة أو للعمل على شفاء قريب يعانى من المرض •

وقد أشار السير جيمس فريزر فى كتابه « الفولكلور فى العهد القديم »(٤٠) الى ما كتبه بعض الدارسين الاوائل من أن الهوتنتوت والبوشمن يقطعون عقلة من اصبع الخنصر عند الطفل الوليد كقربان لاطالة عمره خاصة اذا كان قد سبق أن توفى لوالديه أطفال من قبل • ويقال أن بعض قبائل المناطق الساحلية من سكان استراليا الاصليين يقطعون بعض عقلات من أصابع أولئك الفتيات ليصبحن صيادات ماهرات •

ومن الممارسات الشائعة فى أوربا بصفة عامة وكذلك فى الولايات المتحدة أن يعقد الشخص أصابعة لدى اجتيازه الجبانة ، على اعتقاد أن ذلك يحمى الشخص مما قد يلحق به من أضرار أثناء ذلك ، فيمنع الشيطان أو الارواح الشريرة من النفاذ الى جسم الشخص •

وليست المعتقدات قاصرة على الاصابع فحسب ، وانما تمتد الى استخدامها أو الاشارة بها كذلك • اذ يعتقد زنوج جنوب الولايات المتحدة أنه اذا أشرت باصبعك الى احدى الشجار المثمرة ، فان ثمارها سوف تسقط أمامك على الارض • ولكن حذار أن تشير الى أحد المقابر • ان فعلت ذلك فسيؤدى ذلك اما الى التعجل بموتك أنت ، أو أن الشبح

---

(٤٠) صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب الهام (فى مجلدين) أعدتها الاستاذة الدكتورة نبيلة ابراهيم ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ — ١٩٧٤ .

الموجود داخل تلك المقبرة سوف يخرج منها ويطاردك ، أو أن ذلك الاصبع الذى أشرت به سوف يصاب ويسقط .

كما أن هناك معتقدات مرتبطة بأصابع معينة من أصابع اليد . اذ يشيع عند زنوج الولايات المتحدة الاعتقاد بضرورة عدم لمس أى جرح باصبع السبابة لان ذلك يكون نذيرا بحدوث شيء رهيب . ولا شك أن ذلك يشير الى معتقد أوربى أقدم كان واسع الانتشار فى أوروبا مؤداه أن اصبع السبابة سام ولذلك فان الجرح الذى يلمسه لن يشفى اطلاقا .

وتزخر الاساطير والحكايات الشعبية على مستوى العالم بالعديد من الاشارات والرموز المرتبطة بالاصابع . فأصابع القديسين تشع النور والنار (طراز F. 552. 2) ، ونسمع أن الاطفال قد تتغذى أحيانا من أصابعها (طراز T. 611. 1) كما كان الحال بالنسبة لابراهيم . كما أن بعض الابطال ذوى القوة الخارقة يتميزون أحيانا بزيادة عدد أصابع اليد عن الخمسة (طراز F. 552. 1) فيكون ذلك من أمارات التعرف عليهم(٤١) .

وعلاوة على هذا نجد أن المنجمين والفلكيين يهتمون بالاصابع اهتماما خاصا ، خاصة المختصين منهم بكشف الطالع من قراءة الكف ، ونجد لديهم أسماء خاصة لكل اصبع من الاصابع يكشف عن صلته بنجم معين ... الخ .

كما يعتقد أن اصبع البنصر من اليدين وثيق الصلة بالقلب ، وهو ما يفسر اختياره للبس خاتم الخطوبة والزواج . حتى يعتقد أنه اذا انغمس هذا الاصبع ولو قليلا فى السم ، فان الشخص يحس بتأثير السم فى جسمه بمنتهى السرعة .

---

(٤١) انظر مزيدا من النماذج والتفاصيل فى المقال المذكور فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ٣٧٩ — ٣٨٠ .

وعلاوة على هذا كله فان الاصابع تدخل فى عـــدد كبـــير من ألعاب الاطفال ، تلك التى يلاعبهم بها الكبار ، مثل عدد كبير من ألعاب الاطفال فى أوربا وعندنا • ولعل أشهرها جميعا عندنا لعبة « البيضة واللى اشتراها واللى سلقها •• الخ » والتى تنتهى بدغدغة الطفل من ابطيه •

١٧ ــ آثار القدمين :

ترجع أهمية الآثار التى تخلفها القدمان على الارض الى أنها علامات أو آثار لجسد صاحبها ، ومن ثم يمكن التأثير عليه تأثيرا ســـحريا من خلالها • ويعتقد أبناء بعض القبائل الاسترالية أنه من الممكن اصـــابة شخص بالعرج عن طريق وضع أحجار ذات حروف مدببة أو بعض قطع الزجاج المكسور فوق الآثار التى خلفتها قدماه على الارض • وفى بورما وشمالى الهند يعتقدون أن الاوجاع التى تصيب القدمين ترجع فى الغالب الى استغلال عدو أو ساحر لآثار أقدام ذلك المريض • وتحرص كثير من القبائل الافريقية حرصا كبيرا على طمس آثار الاقدام لهذا السبب ، لكى لا يستغلها أحد من أعدائهم فى التأثير سحريا عليهم • بل ان الحشرات التى تعدو هنا وهناك وتعمل بزحفها هذا على طمس آثار أقدام الصيادين والمحاربين تحظى بتقديس خاص عند كثير من الشعوب البدائية • ويعمـــد صيادو شعوب الزولو ، والهوتنتوت وأبناء بعض قبائل غرب أفريقيا الى وضع الاحجبة والاعمال السحرية فى الطرق التى تمر فيها فرائس الصيد التى يسعون فى اثرها ، وذلك بهدف منع تلك الطرائد من أن تذهب بعيدا أكثر مما يجب • ونفس الشىء يفعله صيادو بعض القبائل الهندية الحمراء فى أمريكا الشمالية •

ويعتقد فى منطقة بوهيميا أنه لكى تصيب شخصا بالعرج أو آلام الساق عليك أن تأخذ تراب آثار قدميه وتضعه فى غلاية ومعه مسمار ودبوس وبعض قطع الزجاج المكسور ، وتترك الخليط يغلى الى أن تتصدع

تلك الغلاية • عندئذ سيصاب ذلك الشخص بالعرج بقية عمره • ويعتقد فى ولاية ليتوانيا (على بحر البلطيق) أنه اذا دفن تراب آثار قدمى أحد الاشخاص فى جبانة فان ذلك الشخص سوف يمرض ويموت • ويعتقد فى ولاية استونيا (المجاورة للولاية السابقة) أنك اذا قست أثر القدمين بعصاة وقطعت من تلك العصا على قدر الاثر ودفنت تلك القطعة فى مقبرة ، فانه يتحقق لصاحب الاثر نفس النتيجة ، أى مرض حتى يموت •

ويعتقد بعض زنوج جنوبى الولايات المتحدة أنك اذا حملت تراب آثار قدمى أحد الاشخاص فى خرقة حمراء ، وحملت معك تلك الخرقة ، فان صاحب الآثار سوف يكون مرغما على أن يتبعك حيثما ذهبت • ومن الواضح أن هذه الوصفة تنتشر فى مجال الحب بشكل خاص • كذلك تعمد نساء الزونى فى بعض الاحيان الى وضع تراب آثار قدمى أزواجهن حيث ينمن ، كى يضمن اخلاص الازواج لهن •

وتحفل الحكايات الشعبية بعديد من الشواهد على استخدامات مماثلة لآثار الاقدام ، أو معتقدات مغايرة ولكنها تستند الى نفس الاساس الاعتقادى ، وهو أن آثار القدمين جزء من كيان صاحبها ، فممارسة سحر عليها هو تأثير على صاحبها ، وبشكل عام كل تأثير عليها ينتقل الى صاحبها على التو ان خير أو شرا • الا أن المتغيرات الموجودة فى الحكايات الشعبية قد تكون أكثر خيالا وربما أشد تعقيدا • فمن الممكن البطل أن يجعل آثار أقدامه تشبه آثار أقدام الحيوانات ، ان هو استوفى شروطا معينة • وفى بعض الاحيان تتخذ آثار الاقدام رمزا للحياة (فى الاساطير الايسلندية) • واذا امتلأت آثار أقدام البطل بالتراب ، فمعنى ذلك أن البطل مريض ، ولكن اذا امتلأت بالدم ، فمعناه أنه قد لقى حتفه فى المعركة •

وعلاوة على كل هذا تتناول الاساطير المحلية فى كل مكان من العالم الآثار الباقية على الصخور ، والجرف (جمع جرف) ، والجبال وتفسرها

باعتبارها آثار أقـدام آلهة (محليين) ، أو شـياطين ، أو أنبياء ، أو كائنات فوق طبيعية ••• الخ(٤٢) •

١٨ ـ العفة واختباراتها :

تعرف كل المجتمعات بعض الاختبارات التى تهدف الى التحقق من اخلاص المرأة لزوجها أو الرجل المرتبطة به • ويزخر التراث الشـعبى بالعديد من هذه الاختبارات ، منها ما تحويه الحكايات ، ومنها ما جاء فى الاساطير ، وغـير ذلك • وهى ترتبط فى الغالب بالامتحـان الالهى أو الاورديل Ordeal واختبار النار هو أكثر أنواع الامتحان الالهى شيوعا فى تاريخ الثقافة حيث يطلب من المرأة المشكوك فيها :

ـ أن تضع يدها فى ماء يغلى •
ـ أو تضع يدها فى رصاص يغلى •
ـ أو تضع يدها أو قدمها فى اللهب •
ـ أو تجبر على أن تمشى حافيه القدمين على شفرات (سن) المحراث التى تكون قد احمرت من شدة سخونتها ••• الخ •

فاذا أصابها ضرر فانها تكون مذنبة (ومن ثم يحق عليها العقاب) ، أما اذا لم تصب بضرر من وراء هذا الامتحان فهى بريئة •

وهناك عدا اختبارات النار اختبار الماء : حيث تلقى المرأة المشكوك فيها فى مجرى مائى فاذا اغرقت فهى مذنبة ، أما اذا طفت فهى بريئة •

وهناك نوع آخر من الاختبارات تحكى عنه الاسطورة حيث صنع

---

(٤٢) انظر مزيدا من التفاصيل تحت مادة « آثار القدمين » footprint فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ٤١٠ ـ ٤١١ .

فرجيل — بوصفه عرافا — ثعبانا ضخما من النحاس الاصفر كأداة للاختبار الميكانيكى للعفة • فيطلب من المرأة المشكوك فيها أن تضع يدها فى فم ذلك التمثال ، فاذا كانت مذنبة ، فان ذلك الحيوان (التمثال) سوف يطبق فكيه على يدها ويفصلها عن جسمها ، أما اذا كانت بريئة فلن ينالها أى أذى •

وهناك علاوة على هذا طائفة أخرى من الاختبارات التى تتم بالاستعانة ببعض الاشياء الشخصية التى يعطيها الزوج أو العشيق للمرأة التى يريد التأكد من طهارتها • ومن أمثلة تلك الاشياء الثوب الذى أعطاه الملك هورن Horn لزوجته والذى يظل أبيض اللون طالما كانت صاحبته عفيفة • وكذلك الخاتم الذى يعطيه الزوج لزوجته عند سفره ، فاذا خانته ضاق الخاتم على اصبعها بحيث يؤذيها وربما قطع الاصبع الذى تلبسه فيه وفصله عن يدها ، فيظل ذلك الامر شاهدا على جرمها • ومنها أيضا السيف الذى يعطيه الزوج لزوجته فاذا خانته صدأ السيف ••• وهكذا(٤٣) •

---

(٤٣) انظر مزيدا من الشواهد حول هذا الموضوع فى قاموس فونك للفولكلور ، مرجع سسابق ، ص ٢١٤ •